المذابح التي تعرض لها أهالي يافا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي

د. زكريا إبراهيم السنوار*

* أستاذ مساعد/ قسم التاريخ والآثار/ كلية الآداب/ الجامعة الإسلامية/ غزة.

ملخص:

لفت انتباه الباحث تركيز القوى المتصارعة في المنطقة على ضرورة السيطرة على الساحل الفلسطيني، ولو أدى ذلك إلى سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وإن كانت مدنية؛ لا علاقة لها بالحرب. وتبين أن عروس البحر؛ يافا كانت ضحية تلك الصراعات. وتتناول الدراسة المجازر التي تعرضت لها يافا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الميلادي، ففي عام ١٧٧٢م، ارتكب ظاهر العمر مذبحة، وفي عام ١٧٧٥م، سفك محمد بك أبو الذهب دماء اليافيين، وفي عام ١٧٩٩م، ارتكب قادة الحملة الفرنسية وجنودها المجزرة الثالثة. وفي تلك المجازر الثلاث استشهد ما يزيد عن عشرة آلاف شخص؛ مما كان له آثاره على المدينة؛ اقتصادياً، واجتماعياً، وثقافياً.

Abstract:

The researcher realized that the conflicting powers in the region focused on the need to control the Palestinian coast even if this led to bloodshed and loss of lives including those of civilians who have nothing to do with the war.

It was also discovered that Jaffa (nick named the sea bride) was the victim for these conflicts.

Thus, this study deals with the massacres that Jaffa was subjected to during the last third of the 18th century. Hence, the first massacre was committed in 1772 by Thaher Alumar and the second was in 1775 by Muhammad Beik Abu Athahab and the third was in 1799 by the army leaders and the soldiers of the French campaign. The total number of martyrs in these three massacres reached more than 10,000 people. This had its bad effects on the city economically, socially and culturally.

مقدمة:

تعرضت بلاد الشام في العهد العثماني لأحداث جسام، وفي زحمتها لم تظهر كثير من الجرائم والمذابح، التي راح ضحيتها عدد كبير من الشهداء، الذين أزهقت أرواحهم لأسباب تافهة في المفهوم العام، لكنها كانت أسبابًا مهمة لدى صنّاع القرار، الذين سعوا إلى الاستحواذ على تلك المناطق، وبأي ثمن، ولو على جماجم أهل الشام.

كانت **مدينة يافا**؛ **عروس البحر**، من المدن الشامية التي كثرت فيها المذابح في العهد العثماني، وبخاصة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، ففي عام ١٧٧٢م، تعرضت لمذبحة، ارتكبها ظاهر العمر وعلي بك الكبير، وفي عام ١٧٧٥م، سفك محمد بك أبو الذهب دماء أهالي يافا بشكل فظيع، وعندما وصلت الحملة الفرنسية لاحتلال بلاد الشام، صمدت يافا في وجهها؛ فارتكب الفرنسيون مجزرة ثالثة ضد أهالي يافا وحاميتها العثمانية، أي إنه خلال الفترة ما بين (١٧٧٢– ١٧٩٩) ، فقدت مدينة يافا ما يزيد عن عشرة آلاف شخص، وأدى ذلك إلى خسائر جسيمة على المستوى الاقتصادي؛ بسبب فقدان أولئك الشهداء القادرين على العمل – في الغالب –، إضافة إلى الدمار الذي لحق بالمدينة وأحوازها، فخرَّب البيوت، والخانات التجارية، والأراضي الزراعية بما فيها من ثروات، كما أثّرت تلك المجازر على يافا من الناحية الاجتماعية، فقد أصبح الترمل واليُتم ظاهرة سائدة، فانكسرت نفسيات الأطفال وأمهاتهم، وتحطمت معنوياتهم، وأصبحوا عالة على غيرهم بعد أن كانوا يحيون في كنف أرباب أسرهم الذين أفنتهم تلك المجازر.

اختار الباحث الموضوع للدراسة؛ لأنه من الصفحات المهملة التي لا تثير اهتماماً، رغم خطورتها، وتكرارها في مدن شامية كثيرة وأختار ما جرى في يافا؛ لأنها كانت المدينة الشامية الأبرز في ذلك المجال في العهد العثماني.

يافا عبر العصور؛ لمحة تاريخية:

يافا تحريف للفظ يافي (yafi) الكنعاني، بمعنى (جميل) ، وتقع مدينة يافا على التلة القائمة على مينائها، وهي ذات منظر رائع يطل على البحر المتوسط والسهول الخصبة المجاورة، مما دعا القدماء لتسميتها (يافي – الجميلة) ، وقد ورد اسمها في النقوش المصرية باسم يابو (yapu) ، وحّرف اليهود اسمها الكنعاني؛ ودعوها يافو (yafo) ، وأطلق عليها الآشوريون يآب بو (pu – up– ya) ، وفي العهد اليوناني سميت يوبا (yoppa) ، ووردت في بعض الكتب الجغرافية والتاريخية العربية القديمة باسم (يافه) ، وسماها العثمانيون (يافا) [١].

تمتعت يافا بموقع استراتيجي مهم، فهي تشرف على البحر، وأسهم ميناؤها الطبيعي برخائها الاقتصادي، وكان حاجزاً طبيعياً ضد الغزوات البحرية؛ بسبب ضيق مدخل المرفأ المحمي بالصخور، الذي حال دون دخول عدد كبير من السفن الغازية دفعة واحدة، كما أن جهتها الجنوبية شديدة الانحدار مما منع مهاجمتها، إضافةً إلى إحاطة المدينة بالأسوار، وفيها قلعة، فساهم ذلك في صد المعتدين، ووفر حماية لها [٢] ، وعن طريقها تم اتصال فلسطين بأغلب دول العالم، فكانت محطة رئيسة لتلاقي بضائع الشرق والغرب، وكانت ملتقى لقوافل التجارة، ونظراً لأهمية يافا الاقتصادية والإستراتيجية تطلعت إليها دول كثيرة، وحاصرتها، ودُمرت واُحتلت عبر تاريخها الطويل مرات عديدة [٣] .

بدأت يافا مدينة كنعانية في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، وضمت قصر الملك وأماكن العبادة، ومجموعة غير منتظمة من البيوت الحجرية الصغيرة على المنحدر، باتجاه الساحل، وأحاط بها سور حجري قوي معزز بأبراج، وكانت له بوابة واحدة [٤] .

وقعت يافا مثل باقي المدن الكنعانية تحت حكم الفراعنة والآشوريين، والكلدانيين، والفرس، واليونان، والرومان، والبيزنطيين، ثم فتحها المسلمون عام ١٥هـ/ ٦٣٨م، واحتفظت بمكانتها، وأهميتها وعمرانها في عهد الأمويين، وظلت مهبطاً لحجاج بيت المقدس، وميناء فلسطين الرئيسي، حتى انتقلت الخلافة إلى العباسيين، الذين انتقل اهتمامهم للعراق وفارس، ومع ذلك حافظت يافا على مكانتها كميناء [٥] .

وفي عهد الدولة الطولونية أعيد بناء قلعتها، وعادت الحركة التجارية لمينائها، وفي فترة الصراع الفاطمي مع القرامطة، حاصر القرامطة يافا، فاستنجد أهلها بالفاطميين بمصر، لكنهم فشلوا في فك الحصار، وبعد القضاء على القرامطة، آلت يافا للحكم الفاطمي، وكانت بلدة متواضعة جداً [٦] .

وبسبب الحروب الدامية بين الفاطميين والسلاجقة، وقعت سواحل بلاد الشام تحت الاحتلال الصليبي، وقد سيطر الصليبون على يافا في عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م، وقاموا بتحصينها وتقوية استحكاماتها، وصبغوها بالصبغة الفرنجية، وأطلقوا عليها أسم (japhe) ، وأصبحت الميناء الرئيس لمملكة بيت المقدس الصليبية [٧] .

ولما هزم صلاح الدين الأيوبي الفرنجة في حطين عام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، سارع أخوه العادل وحاصر يافا، وملكها عنوة، وبدأت تعمر يافا بمن نزلها من المسلمين، وأمام وصول قوات صليبية جديدة، أمر صلاح الدين عام ١١٩١م بهدم أسوارها؛ لمنع الصليبين من الاحتماء فيها إذا احتلوها، وقد ظلت تلك الأسوار محطمة حتى عام ١٢٥٠م، عندما دخلها

لويس ملك فرنسا، وحاول الصليبيون إعادة أسوارها ودعمها بالأبراج وحفر الخنادق حولها، وتحصينها ضد القوات الإسلامية [٨] . وفي عام ١٢٦٨م غزا الظاهر بيبرس يافا، فلحق بها دمار كبير، ومع ذلك فتحها، ولم يدم خرابها كثيراً، فقد عاد إليها أهلها، وبدأ إعمارها من جديد، وحُصنت، واستأنفت السفن التجارية الرسو في مينائها، لكنها لم تعد لسابق عهدها [٩] .

أوضاع يافا حتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي:

كانت يافا منذ سيطرة العثمانيين على بلاد الشام عام ١٥١٦م، في حالة ركود، وأقرب إلى قرية؛ بسبب ما تعرضت له منذ الحروب الصليبية، حتى العهد المملوكي [١٠] ؛ لذا أصبحت تابعة للواء غزة في عهد آل رضوان طوال فترة حكمهم، الذي أمتد من ٩٦٣هـ/ ١٥٥٦م حتى عام ١١٠١هـ/١٦٩٠م [١١] ، وفي أواخر ذلك العهد انهار الاقتصاد، وانعدم الأمن، وتوقفت حركة التجارة، واندثرت الزراعة على يد الأعراب الذين هاجموا المدن والأرياف، وأغلقت الوكالات الفرنسية أبوابها، ورحل وكلاؤها، وتوقف التصدير والاستيراد من أسكلة (ميناء) يافا، وانقطعت حركة السابلة [١٢] ، وبعد زوال حكم آل رضوان، كانت سناجق فلسطين الجنوبية الثلاثة؛ غزة والرملة ويافا تتبع إيالة دمشق، وكانت يافا وما حولها من سهول مترامية تمتد شمالاً حتى حدود سنجق اللجون [١٣] ، وكان يحكمها متصرف يقيم في الميناء، وكان يُعرف باسم «ضابط الجمارك»، وكانت يافا تتبع الباب العالي في استانبول مباشرة، وكانت مداخيلها من الجمارك تُرسل إلى الخزينة السلطانية [١٤] ؛ لذا أولى الباب العالي يافا اهتماماً خاصاً، فقام بتحصينها، وزودها بقوة عسكرية، وأنشأ فيها حصناً مزّوداً بخمسة عشر مدفعاً، وعمل في الحصن ثلاثمائة إنكشاري، كما بلغت الحامية التي تعمل لحماية الميناء من هجمات القراصنة الأوربيين مائة وعشرة جنود؛ مما حَّسن الأمن، وأنعش حركة التجارة [١٥] . حتى إن الرحالة مصطفى اللقيمي الدمياطي، عندما زارها عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م، وصفها بقولة: «يافا بلدة ظريفة، على ساحل البحر، وهي أسكلة (ميناء) للرملة والقدس ونابلس، وبظاهرها بساتين ذات أشجار وفواكه». [١٦]

في ذلك الوقت بدأ ظهور ظاهر العمر الزيداني، الذي استغل انشغال الدولة العثمانية بحروبها ضد روسيا، فقوَّى علاقاته بالتجار الأجانب، واهتم بجيشه، حتى بلغ خمسة آلاف جندي [١٧] ، وبدأ توسعه على حساب الحكام المجاورين، إلى أن وصل نفوذه إلى يافا، وقد أرسل رسالة لوزير الدولة الفرنسي لشؤون البحرية، بتاريخ ٨ رجب ١١٦٧هـ/١ أيار (مايو) ١٧٥٤م، ذكر فيها أن يافا أصبحت تحت سلطته [١٨] .

كلَّفت الدولة العثمانية في عام ١١٧٩هـ/١٧٦٦م، عثمان باشا الصادق، والي دمشق بكبح جماح ظاهر العمر، واستعادة يافا وغزة، وبالفعل تمكن من ذلك في العام ذاته [١٩] لكنه عّين حاكماً ظلوماً، فثار الأهالي ضده، فأخذ عثمان باشا الأهالي بمنتهى القسوة، فقد قمع أهالي يافا عام ١١٨٢هـ/١٧٦٩م، فأقفرت من تجاوزاته يافا من السكان، وتركها التجار الفرنسيون [٢٠] واستغاث أهالي يافا والقدس والخليل بظاهر العمر، يناشدون عونه؛ للتخلص من طغيان عثمان باشا وجنوده. [٢١]

المذبحة الأولى التي تعرضت لها يافا في القرن الثامن عشر:

التقت مطامع علي بك الكبير في مصر، مع مطامع ظاهر العمر الزيداني، وتطلعا للانفصال عن الدولة العثمانية المنشغلة بحروبها ضد روسيا، وجمعتهما حالة العداء مع عثمان باشا، واستغلا استنجاد أهالي بعض مدن فلسطين بظاهر من جور عثمان باشا، فأخذ علي بك يعد العدة لإنفاذ حملة إلى بلاد الشام، بالتعاون مع حليفه ظاهر العمر [٢٢].

كانت الدولة العثمانية تعاني من الهزائم المتلاحقة من القوات الروسية منذ عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م، فقد هاجم الأسطول الروسي ثغوراً عثمانية عديدة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، ومع ذلك لم يتورع الحليفان علي بك وظاهر العمر عن الاستعانة بقائد الأسطول الروسي الكونت أورلوف بين الحين والآخر، لدعم قواتهما البرية المشتركة، وكانت بداية الاتصال به في أواخر عام ١١٨٤هـ/١٧٧٠م، وحصلا منه على تعهّد بتقديم المساعدة البحرية لهما عند الضرورة [٢٣] ، وذكر بازيلي أن «علي بك وظاهر العمر دعيا السفن الروسية لمساندتهما في الساحل السوري، الذي يوفر لسفن الأسطول الروسي في البحر المتوسط تسهيلات تمكنها من القيام بعملياتها الحربية، وبصفة خاصة التزود بالماء والمؤن» [٢٤] .

تحركت الحملة التي أرسلها علي بك الكبير من مصر في عام ١١٨٥هـ/ كانون أول (ديسمبر) ١٧٧١م، لمساندة حليفه ظاهر العمر ضد عثمان باشا الكرجي، وكانت الحملة بقيادة محمد بك أبو الذهب، وقد أقبل ظاهر العمر من عكا للوقوف إلى جانب الحملة في وجه قوات عثمان باشا التي تحركت وعسكرت قرب يافا،وأجبر ظاهر عثمان باشا على الفرار دون قتال، وبذلك دخلت الرملة واللد تحت حكم الشيخ ظاهر، وأصبحت الطريق مفتوحة أمام الجيش المصري المملوكي، وكان قوامه ثلاثين ألف جندي، وكان النصر حليفه، فاستولى على كثير من مدن الشام. ثم سولت لأبي الذهب نفسه أن ينزع الملك من سيده، واتفق مع العثمانيين على ذلك، فرجع لمصر، واستولى على الحكم فيها، فاضطر علي بك للفرار إلى عكا، والاحتماء بحليفة ظاهر العمر [٢٥] .

علم سكان يافا بقدوم علي بك فاستنجدوا بمصطفى بك طوقان متسلم نابلس، فأنجدهم بأخيه أحمد بك، ومعه جموع كثيرة تحصنوا في يافا، وقام مصطفى بك بالمرابطة بين الرملة والمجدل على رأس قوة عسكرية من جبل نابلس؛ لقطع الطريق على ظاهر العمر وحليفه علي بك الهارب من مصر، ولما بلغهما من عيونهما ذلك، تجنبا الاصطدام، وسلكا طريقاً جانبياً، وتسللا ليلاً إلى عكا [٢٦] ، وقد آثار ذلك حفيظة ظاهر العمر، ولجأ الحليفان إلى الكونت أورلوف؛ قائد الأسطول الروسي في البحر المتوسط، وطلبا منه إرسال سفينة إلى ميناء يافا، لقذفها بالمدفعية البحرية، عقاباً لسكانها ومتسلمها أحمد بك على قطع الطريق على الحليفين، وهما في طريقهما إلى عكا، فقام أورلوف بإرسال قطعة بحرية من نوع (البركندة) ، أطلقت مدافعها على يافا، فتصدى لها بحارة يافا البواسل، وتسللوا ليلاً، وتمكنوا من الاستيلاء عليها وقتلوا عدداً من جنودها المعروفين (بالجنكشن) ، وأسروا الباقين، وأتوا بهم إلى أحمد بك طوقان، متسلم يافا، وكانت ذلك في عام ١١٨٦هـ/١٧٧٢م[٢٧] .

وعندما علم مصطفى بك؛ متسلم نابلس بأسر البحارة الروس في يافا، أمر بإحضارهم إلى نابلس، وقام بقتلهم؛ ليحرج موقف ظاهر العمر من حلفائه الروس، فلما بلغ ذلك ظاهر العمر جُنَّ جنونه، وعدّه عدواناً فظيعاً عليه، وأقسم أن لا يرجع عن نابلس حتى يسقى حصانه من عين الست المجاورة للسرايا، وصار ينهب قوافل نابلس ويقطع الطرق المؤدية إليها [٢٨] .

ثم تحرك ظاهر العمر وعلي بك تجاه يافا لينزلا القصاص بأهلها، وذلك عام ١١٨٦هـ/تموز (يوليو) ١٧٧٢م، وحاصراها، وتم تزويد الجيش بما يحتاجه من ذخيرة ومؤن وعتاد عن طريق البحر، بسفن أفرغت حمولتها شمالي يافا، ثم أوصلتها الجمال إلى معسكرات الجيش المحاصِر [٢٩] .

كان أحمد بك متسلم يافا، قد اختزن في المدينة كمية كبيرة من الزاد والعتاد، ورفض الاستسلام، وتصدى للغزاة. [٣٠] وقد ضيق علي بك وظاهر العمر الحصار على يافا تدريجياً، فأحاط الجنود بالبلدة في شكل دائري، وكان بين كل مجموعتين من الجند مائتا ياردة تقريباً، وكانت كل مجموعة مائتي جندي، ثم نصبا بطارية للمدافع تجاه باب المدينة الشرقي، تألفت من مدفعين جديدين زنة قنبلتهما ١٢ رطلاً (والرطل كان يعادل ٠,٤٥ من الكيلو غرام أي (٥٤٠٠) غراماً. وعززهما بمدفع نحاس من عيار ١٦ بوصة تزن قنبلته ١٦ رطلاً؛ أي (٧٢٠٠) غراماً [٣١] .

وقذفت المدفعية المشتركة مدينة يافا بآلاف القنابل، وصمد سكان يافا رغم وطأة الحصار والدمار، وبدأ المدافعون يشعرون بشدة الجوع، والحاجة الماسة للوقود؛ لذا أخذوا

يتسللون ليلاً، لقطف أشجار الفاكهة التي تحيط بالبلدة، وقطع بعض الأشجار لاستخدامها وقوداً [٣٢] ، فأمر علي بك وظاهر العمر رجالهما بقطع الأشجار؛ ليحرموا أهل يافا من بعض مصادر تموينهم [٣٣] ، ثم وصلت سفينة روسية لنجدة علي بك وظاهر العمر، وكان على متنها ثلاثة مدافع ميدان نحاس، وسبعة بنادق جيدة المعدن، وخمسمائة طلقة، وثلاثة جرارات للمدافع حديثة الصنع، وأقام الروس بطارية ثالثة في الجنوب، على بعد مائة ياردة من أسوار يافا، تألفت من ثلاثة مدافع قادها ضابط روسي، وأصلى الأسوار ناراً حامية صدعتها، لكن رجال المقاومة تمكنوا من قتل ذلك الضابط، وواصل أهالي يافا الدفاع عن مدينتهم، وفي كانون أول (ديسمبر) عام ١٧٧٢م، مرت بعض سفن الأسطول الروسي بيافا، وساهمت في ضربها من البحر، إلا إن سوء الأحوال الجوية اضطرتها إلى مغادرة يافا.[٣٤]

ومع طول الحصار، وكثرة القذائف التي ألقيت على المدينة، ونفاذ الذخيرة في يافا، أجبرت أهلها على الاستسلام، بعد أن عانى أهلها من الجوع والقتل والدمار، وكان ذلك الاستسلام في أول شباط (فبراير) عام ١٧٧٣م، وأوقع الغزاة بأهل المدينة مجزرة دامية[٣٥] بعد حصار استمر ثمانية أشهر، امتدت من تموز ١٧٧٢م حتى شباط ١٧٧٣م.

المذبحة الثانية التي تعرض لها أهالي يافا في القرن الثامن عشر:

بعد أن أحكم محمد بك أبو الذهب سيطرته على مصر، أعد حملة عسكرية على بلاد الشام رغبة منه في ضمها لحكمه، وإعادة السيادة العثمانية عليها، فكان جيشه كبيراً، ينوف على الستين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى غزة استسلمت له، وكان ظاهر العمر قد حصّن يافا، وزودها بالمدفعية وبحامية عسكرية قوية، وكان المتسلم كريم بن ظاهر العمر قد أغلق أبواب المدينة، فأحاطت بها عساكر محمد أبو الذهب من كل جانب [٣٦] .

وذكر الجبرتي بهذا الصدد: «في محرم ١١٨٩هـ/ مارس (آذار) ١٧٧٥م، عزم محمد أبو الذهب على التوجه إلى البلاد الشامية بقصد محاربة ظاهر العمر، واستعد لذلك استعداداً عظيماً في البر والبحر، وأنزل في المراكب الذخيرة والمدافع والقنابل، والمدفع الكبير المسمّى (أبو مايلة) ، ولم يزل في سيره حتى وصل إلى غزة [٣٧] ، في التاسع والعشرين من محرم ١١٨٩هـ/٢٩ مارس (آذار) ١٧٧٥م، استسلمت المدينة، وتبعتها الرملة دون أية مقامة تذكر، أما يافا فقد حصنها ظاهر العمر، وتولى الدفاع عنها يوسف الصباغ، وقد أبدت مقاومة شديدة [٣٨] ، ووصف الجبرتي مجزرة يافا بقولة: « فلما وصل محمد أبو الذهب إلى يافا، وضيق عليها الخناق، وامتنعوا عليه وحاربوه، ورمى عليهم بالمدافع والمكاحل عدة أيام، فلم يزالوا بالحرب عليها، حتى نقبوا أسوارها، وهجموا عليها من كل ناحية، وملكوها، ونهبوها، وقبضوا على أهلها، وربطوهم بالحبال والجنازير، وسبوا النساء

والصبيان، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة، ثم جمعوا الأسرى خارج البلد، ودوروا فيهم السيف، وقتلوهم عن آخرهم، وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع بارزة» [٣٩] ، وقد تواصل الحصار على مدينة يافا ثمانية وأربعين يوماً قبل سقوطها، بعد اختراق أسوارها بالمتفجرات، ودخول المماليك إليها، وقتل ونهب سكانها، ولقد اقترفت عساكر محمد أبي الذهب إحدى أبشع المجازر في تاريخ فلسطين خلال العهد العثماني، وتركت تلك المذبحة أثرها على بقية سكان المدن، فدب الخوف في نفوس الأهالي، وهرب كثيرون منهم تجاه عكا، لذلك قرر ظاهر العمر إخلاء عكا، واللجوء إلى الجبال، والتحصن في صفد، وتمكن محمد أبو الذهب من السيطرة على حيفا وعكا وصفد، ونشر الدمار والخراب حيثما حل، ولكن الاجتياح لم يطل، فقد مرض أبو الذهب فجأة بالحمى، وتوفي في العاشر من يونيو (حزيران) ١٧٧٥م/ الثاني عشر من ربيع الأول ١١٨٩هـ، وفي اليوم التالي انسحبت عساكر المماليك إلى مصر، ورجع ظاهر العمر إلى عاصمته عكا، وكان يسيطر على المدينة أحمد الدنكزلي رئيس فرقة المغاربة، وعامل الدنكزلي وفرقته ظاهر العمر معاملة قاسية ومهينة، ونهبوا كل ما كان معه من أموال [٤٠] .

وذكر المرادي في كتابه (سلك الدرر) أن محمداً أبا الذهب أعد حملة كبرى في عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م، قاصداً إجلاء ظاهر العمر، فلما بلغه قدوم الحملة، استعد لمضاربته، وأرسل إلى بلدة يافا أعيان شجعانه الذين يسمونهم «الفداوية»، وأمرهم أن يكونوا بقلعة يافا، ويحصنوها بالأطواب، وبقى هو في عكا، وقام أبو الذهب عندما طال حصار يافا باصطناع مدفع كبير (طول قلته ذراعين وثلث) ، وأمر بوضعها بالمدفع مع قنطارين من البارود، وأبعد معسكره عنه أربعة أميال، وأمر برمي المدفع المذكور على القلعة، فلما هدمها على من فيها، خرج بعض أهالي يافا، فأمر بقتلهم، ودخل جنوده البلدة، وأمر بالقبض على من بقي حياً من أهلها، وربطهم بالحبال والجنازير بعضهم على بعض، ثم جلس على كرسي، وأمر بضرب أعناقهم عن أخرهم، وهو جالس ينظر إليهم، وفي ثاني يوم من قتلهم وهدم يافا عجل **الله** له الموت، مسموماً بسم أرسله له الظاهر عمر وجعل لمن أدخله عليه خمسة آلاف دينار، ثم قام مماليكه بحمل جثته بعد تجويفها إلى القاهرة في سحلية (تابوت) ، ودفنوه بالجامع الذي أنشأه تجاه الجامع الأزهر [٤١] .

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي إدوارد لوكروا عن مجزرة يافا المروعة ما يأتي: «كان جيش أبي الذهب مؤلفاً من خمسة عشر ألف مقاتل، أكثرهم من الفرسان، وكان لديه خيالة من المغاربة، ومدفعية هائلة، وكان قائد المدفعية ضابط إنجليزي يدعى «روبنسون»، وتقدم أبو الذهب بسرعة بعد الاستيلاء على غزة دون أن يلاقي مقاومة تذكر، وما إن وصل إلى

يافا حتى فرض الحصار عليها، تلك المدينة الباسلة التي صمدت في وجه ظاهر العمر وعلي بك اللذيْن أوقعا بسكانها مجزرة دامية، ودام الحصار فترة طويلة، وفشل في هجومه الأول، وتحطمت بعض مدافعه من قذائف المدافعين، ولاذ مشاته بالفرار، وقام روبنسون بإبعاد المدافع عن الأسوار، وأنشأ متاريس احتمى الرماة خلفها. وكان المدافعون يتصدون للغزاة بعزيمة، ويسدون الثقوب التي تحدثها قذائف المدفعية بهمة لا تعرف الكلل. ومضت ستة أشهر دون أن يتقدم أبو الذهب خطوة واحدة، وكاد يتولى عليه اليأس لولا أن المدفعية بقذائفها المتواصلة، فتحت ثقباً كبيرًا بالأسوار، وعند ذلك أمر أبو الذهب فرسانه المماليك باقتحام تلك الثغرة، وتعذر عليهم ذلك، فاضطروا إلى الترجل عن خيولهم، واستلوا سيوفهم المحدبة، وحاولوا تسلم الأنقاض بجزماتهم الكبيرة الواسعة، وملابسهم الفضفاضة مما أفقدهم التوازن، ومكن المدافعين من الإطباق عليهم كالذئاب، فانقلبوا على بعضهم بعضاً، وولوا مدحورين، ويئس أبو الذهب، وكاد يعدل عن الحصار، وبدأت المجاعة في يافا تستشري، ولم يبق فيها ما يؤكل [٤٢] ، وانتظرت حامية يافا بفارغ الصبر مساعدة ظاهر العمر لها، ولكنه لم يتمكن من تقديم أي عون لهم، فلم تجرؤ سفنه الراسية في عكا وصيدا على مهاجمة القطع البحرية العثمانية التي كانت تساند قوات محمد أبو الذهب، ولذلك بدأ الشيخ عبد الكريم ابن الشيخ ظاهر العمر بإجراء مفاوضات، وتم الاتفاق المبدئي بين الطرفين، وتعهّد أبو الذهب بالإبقاء على حياة المدافعين عن يافا، وبعدم الإساءة إلى الأهالي، وفتحت المدينة لهم أبوابها بعد أن اطمأن قادة الحامية، وأوشكت اتفاقية السلام بين الطرفين أن توقع، وحدث أمر مفاجئ، فقد انطلقت بضع طلقات مما أرعب المماليك، وظنوا أن السكان عازمون على مهاجمتهم، فاستنجدوا بزملائهم، وكانت فرصة مواتية لأبي الذهب لتنفيس حقده على سكان المدينة الذين دحروا قواته، وأوقفوا زحفه، فأطلق لهم العنان، ودخلوا بشكل كاسح أبواب المدينة المفتوحة، وأوقعوا بسكانها مجزرة دامية بوحشية، ونهبوا كل ما طالته أيديهم الملوثة بدم الضحايا، وذبحوا جميع السكان، فلم يبق في يافا حيٌّ يرزق، وكانت تلك الجريمة النكراء وصمة عار في جبين محمد أبو الذهب وجنوده في ١٨ ربيع أول ١١٨٩هـ/ ٢٠ مايو (أيار) ١٧٧٥م [٤٣] .

يتضح من روايتي الجبرتي ولوكروا أن مجزرة مروعة ارتكبها محمد أبو الذهب وجنوده بمدينه يافا، لكن الروايتين اختلفتا في أمور عدة منها: عدد جنود الحملة، فبينما ذكر الجبرتي أن عدد جند الحملة بلغ ستين ألف جندي، ذكر لوكروا أن عددهم كان خمسة عشر ألفاً، وفي حين أورد الجبرتي أن حصار يافا بلغ ثمانية وأربعين يوماً، ذكر لوكروا أن الحصار استمر ستة أشهر، وبينما ذكر الجبرتي أن يافا استسلمت وارتكب المماليك فيها

مجزرة مروعة، وتابع أبو الذهب زحفه وتمكن من احتلال حيفا وعكا وصفد، وسرعان ما أصيب بالحمى على إثر ذلك في الثاني عشر من ربيع أول ١١٨٩هـ، ذكر لوكروا أن أبا الذهب احتل يافا في ١٨ ربيع أول ١١٨٩هـ.

وبالتدقيق في الروايتين يتضح أن الجبرتي أدق من لوكروا، فمدينة غزة سقطت في ٢٩ مارس (آذار) ١٧٧٥م/٢٩ محرم١١٨٩هـ، وتوفي أبو الذهب في ١٠ يونيو (حزيران) ١١٧٥م/٢٢ ربيع أول ١١٨٩هـ، فالفترة الزمنية بين احتلال غزة ووفاته سبعون يوماً، مما يؤكد صحة رواية الجبرتي من أن حصار يافا استمر ثمانية وأربعين يوماً، وعدم صحة ما ذهب إلية لوكروا من أن حصارها امتد ستة أشهر.

ووصف ميخائيل الصباغ مجزرة يافا بقوله: «وأمر محمد بك رجاله بنهب المدينة، وأن يعملوا السيف بكل من كان فيها دون فرق ولا تمييز بين المسلم والنصراني، والغرباء وأبناء السبيل والزوار، ثم أمر بحمل رؤوس القتلى ركاماً وأهراماً؛ ليوقع الرعب في قلوب حكام البلاد وأهلها حتى لا يقاومه أحد، وقد قال أبو الذهب: أنا أقسمت أن أقتل كل أهل يافا، وأن أجعل من دمهم نهراً يجري في شوارعها» [٤٤] . ووصف الخوري ميخائيل بريك الدمشقي المذبحة قائلا: أن أبا الذهب أرسل من أراده من النساء والأولاد إلى بر مصر، ولم يسلم من الذبح والقتل إلا أناس قلائل [٤٥] . وقدّر الأمير حيدر الشهابي عدد مَنْ قتلهم أبو الذهب من سكان يافا بأكثر من خمسة آلاف نفس [٤٦] .

المذبحة الثالثة ضد أهالي يافا في القرن الثامن عشر الميلادي:

عاد ظاهر العمر إلى عكا، بعد وفاة محمد بك أبو الذهب بالحمى فجأة عام ١٧٧٥م، لكن ظاهراً سرعان ما قتله أحمد الدنكزلي المغربي، الذي عمل في خدمة ظاهر أربعين سنة[٤٧]، وبرز أحمد باشا الجزار، ووصل إلى مكانة رفيعة، وحصل على لقب (المدافع عن الساحل السوري) ، مع أنه لم يكن أكثر من محافظ عكا، بعد أن استعادتها القوات العثمانية بعد مقتل ظاهر العمر في عام ١١٨٩هـ/١٧٧٥م [٤٨] ، وفي عام ١١٩٩هـ/١٧٨٥م، عُين أحمد باشا الجزار والياً على دمشق، ثم عُزل، وأعيد والياً عليها ثانية في عام ١٢٠٥هـ/١٧٩٠م، واستمرت ولايته الثانية على دمشق خمس سنوات، [٤٩] وفي ولايته الثانية كان والياً على صيدا أيضا [٥٠] . مما سبق يتضح أن فلسطين أصبحت تحت سيادة أحمد باشا الجزار بعد مقتل ظاهر العمر الزيداني.

من ناحية أخرى أدى نجاح الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م، إلى سيطرة فرنسا على مناطق عدة في أوروبا، ثم أرسلت الحكومة الفرنسية حملة لاحتلال مصر، وبالفعل دخلت القوات الفرنسية القاهرة بعد معركة إمبابة (الأهرام) بتاريخ ١٣ تموز (يوليو) ١٧٩٨م[٥١].

قررت الدولة العثمانية استرداد مصر، فوسّعت نفوذ أحمد باشا الجزار، ومنذ كانون ثانٍ (يناير) ١٧٩٩، عُين الجزار حاكماً على طرابلس، ومقاطعة يافا وغزة، كما عُزل والي دمشق إبراهيم باشا، وعُين الجزار خلفاً له، وبذلك أصبح حاكماً لعكا، ووالياً على ثلاث ولايات من ولايات الشام الأربع، وهي صيدا ودمشق وطرابلس [٥٢].

سعى كل من نابليون بونابرت وأحمد باشا الجزار لأخذ أسباب القوة، التي تحقق النصر على الخصم، في المعركة التي قرر نابليون شنها على بلاد الشام، منفذاً للحملة من الحصار المفروض عليها في مصر، وتجنباً للحملة العثمانية على مصر بهدف طرد الفرنسيين منها [٥٣].

وذكر الجبرتي أن نابليون اجتمع بالمشايخ والأعيان، وأشعرهم «أنهم متوجهون إلى الفرقة الأخرى (من المماليك الفارين) ناحية غزة، فيقطعونهم، ويمهدون البلاد الشامية؛ لأجل سلوك الطريق، ومشي القوافل والتجارات برًا وبحرًا، لعمار القطر وصلاح الأحوال»[٥٤].

تألف الجيش الفرنسي المتجه لاحتلال الشام، بقيادة نابليون بونابرت، من أربع فرق هي: فرقة كليبر، وضمت ٢٤٩٩ جندياً، وفرقة الجنرال بون (Bon) ، وتكونت من ٢٤٤٩ جندياً، وفرقة الجنرال لان (lannes) ، وبلغت ٢٩٢٤جندياً، وفرقة الجنرال ريذيه (Re-nier) ، وكانت ٢١٦٠ مقاتلاً، إضافة إلى ٨٠٠ من الفرسان بقيادة الجنرال مورا (Mu-rar) ، و٣٤٠ من سلاح الهندسة بقيادة الجنرال كافاريلي (Caffarelli) ، و١٣٨٥ من سلاح المدفعية بقيادة الجنرال دومارتان (Dommartin) ، و٤٠٠ من الأدلاء، و٨٨ من الهجانة، فبلغت الحملة على فلسطين في مجموعها (١٣٠٤٥) جندياً. وكان رئيس أركان الحملة الجنرال برتيه (Berthier) [٥٥].

تمكنت الحملة من احتلال العريش في شباط (فبراير) ١٧٩٩م، ثم عبرت رفح، ووصلت خان يونس، وتمكنت من احتلالها [٥٦]، وبعد الانتصار على قوة المماليك ما بين خان يونس وغزة، وصل كليبر إلى غزة، وحاصرها، واستسلمت غزة في ٢٤ شباط (فبراير) ١٧٩٩م، ثم زحفت الحملة الفرنسية إلى المجدل، ومنها إلى الرملة، فسقطتا بسرعة، كما سقطت اللد، وأبقى نابليون الجنرال رينيه في الرملة؛ لإحكام الحصار على يافا، ولمراقبة تحرك القوات المعادية في حال نجدتها حامية يافا [٥٧].

وصل الفرنسيون إلى يافا في ٣ آذار (مارس) ١٧٩٩م، بعد أن شنّ نابليون حرباً نفسية وإعلامية على أهلها، فقد أرسل سابقاً منشورات لمشايخها ووجهائها، لكنها لم تلق قبولاً، وفي الوقت ذاته استنجدت حامية يافا بمشايخ جبل نابلس، وأرسل أحمد باشا الجزار

رسالة إلى يوسف الجرار شيخ جبل نابلس، دعاه إلى نسيان الخلافات السابقة بينهما، وضرورة الوقوف صفاً واحداً لمواجهة الخطر الفرنسي، وكانت رسالته قصيدة شعرية، وقد ردّ الشيخ يوسف الجرار بقصيدة لبىّ فيها دعوته، واستنهض فيها مشايخ الجبل للوقوف صفاً واحداً لمواجهة العدوان، الذي استهدف البلاد والعباد، والشرف والدين [٥٨].

حاول نابليون أن يستميل الحامية العثمانية التي كانت تتألف من العرب الأهالي والأتراك والمغاربة والأرنؤوط (الألبان) والأكراد والشركس وغيرهم، **ويحملها على التسليم فأرسل إليها ضابطًا عثمانيًا ومعه رسالة هذا نصها**:

(بسم **الله** الرحمن الرحيم. من حضرة ساري عسكر إسكندر برتبة كتخدا العسكر الفرنساوي إلى حضرة حاكم يافا. نخبركم أن حضرة ساري عسكر الكبير بونابارتة أمر أن نعرفك في هذا الكتاب أن سبب حضوره إلى هذا الطرف إخراج عسكر الجزار فقط من هذه البلدة، لأنه تعدى بإرسال عسكره إلى العريش ومرابطته فيها. والحال أنها من إقليم مصر التي أنعم **الله** بها علينا. فلا يناسبه الإقامة في العريش، لأنها ليست من أرضه فقد تعدى على ملك غيره. ونعرفكم يا أهل يافا أن بندركم حاصرناه من جميع أطرافه وجهاته، وربطناه بأنواع الحرب وآلات المدافع الكثيرة والجلل والقنابر وفي مقدار ساعتين ينقلب سوركم وتبطل آلاتكم وحروبكم. ونخبركم أن حضرة ساري عسكر المشار إليه لمزيد رحمته وشفقته خصوصا بالضعفاء من الرعية خاف عليكم من سطوة عسكر المحاربين إذا دخلوا عليكم بالقهر أهلكوكم أجمعين. فلزمنا أننا نرسل لكم هذا الخطاب أماناً كافياً لأهل البلد والأغراب، ولأجل ذلك أخر ضرب المدافع والقنابر الصاعدة عنكم ساعة فلكية وإني لكم من الناصحين) [٥٩].

قبض قائد الحامية على الضابط وأمر بقتله. ورمى جسده في البحر ورأسه في صفوف الفرنسيين. فاغتاظ نابليون بما جرى وأمر بتشديد الحصار والعودة إلى الهجوم. حاول المهاجمون خرق السور، لكنهم ردوا على أعقابهم. وتسلل جنود من الحامية كانوا يزحفون على بطونهم من بيارات البرتقال وينقضون على المدافع الفرنسية المنصوبة في الشمال عند المقبرة، وقد أبلوا بلاء حسنا واستولوا على بعض العدد والأسلحة. ثم استولى جنود آخرون على معامل لتصليح البنادق والمدافع [٦٠].

ضربت القوات الفرنسية حصاراً على يافا، وطالبت الحامية بالاستسلام، لكنها رفضت، واستبسلت في حراسة المدينة هي ومَنْ وفد من جند العريش وغزة، إضافة إلى من أرسلتهم السلطنة العثمانية من المدافعين، وبعض المشاة المغاربة، ودافعوا عن يافا، وبذلوا جهدهم وطاقتهم، ونالوا كثيراً من الفرنسيين [٦١] ، واعتمدت الحامية في يافا على تحصينات

المدينة، فقد كانت محاطة بسور قوي، ذي شرفات، ومحاط بأبراج تمتد بين الصخور قرب البحر، ولكن ليس لها خندق حول سورها، وكانت حاميتها منتشرة في الحدائق المحيطة بالمدينة [٦٢] ، ذكر الجبرتي في كتابه (مظهر التقديس) : «أمر حضرة ساري عسكر الكبير [يقصد نابليون]، بحفر خنادق حول السور؛ لأجل أن يعملوا متاريس أمينة، وحصارات متقنة حصينة، لأنه وجد سور يافا ملآن بالمدافع الكثيرة، ومشحونة بعسكر الجزار الغزيرة... ولما قرب إلى السور، أمر أن يُنصب المدفع على المتاريس، وأن يضعوا أهوان القنبر بإحكام وتأسيس، وأمر بنصب مدافع أُخَر بجانب البحر؛ لمنع الخارجين إليهم من مراكب المينا [٦٣] ، وفي الصباح هجم كليبر عليها، وانتشر الرماة في البساتين، للتصدي للحامية، وكانت المقاومة عنيفة، وعند الظهر وصل الجيش، ودخل المغاربة المدينة ركضاً، وتوقف كليبر عن الضرب، لأنه تلقى أمراً بتشديد الحصار، وذهب إلى حافة نهر الجريشة، وعسكر مع الخيالة على طريق عكا، لكنه بدأ يقلق على ما يجري للقوات في مناطق نابلس، فكلف دوماس أن يسير إلى تلك الجهة، وأن يأخذ معه منشورات موجهة للمشايخ والأمراء، يدعوهم إلى ترك الجزار ومحالفة الفرنسيين، وكان بونابرت وكل قواده يعتقدون أن المنشورات تؤثر في السكان [٦٤] .

وفي وقت آخر قام المحاصرون بتسلل ثان أهم من الأول. وذلك أن الفرنسيين لحظوا أن ثمة مدفعين على اليمين لا تبلغ قنابلهما المرمى، فأرادوا أن ينقلوهما إلى تلة بجانب المقبرة فأرسلوا مع كل منهما حامية لحماية ناقلي المدفعين. وصادف أن زورقاً كان في تلك الأثناء يمخر عباب البحر. ورأى الحركة، فأبدى إشارات لمن في المدينة.فخرج الجنود المغاربة واحدا بعد الآخر. بين الصخور على حافة الشاطئ دون أن يلمحهم أحد. فهجموا على الحاميتين واضطروهم للفرار بعد أن قتلوا قسما منهم ،واشتد تذمر الفرنسيين من الحصار، ومن بطولة المُحاصرين؛ مما جعل نابليون يغضب ويشتد في غضبه وحنقه للحالة النفسية التي وصل إليها جيشه، مما اضطره لأن يأخذ بنفسه زمام القيادة. فشدد الحصار وأمر جنده بالهجوم هجمة واحدة، وأن يبذلوا كل ما لديهم من قوة لدخول المدينة مهما كلفهم الأمر [٦٥] .

ومن ناحية أخرى كلف نابليون (بون) بضرب الحصار من الشمال، على شاطئ البحر، وأن يراقب الميناء، أما (لان) فكان مكلفاً بفتح ثغرة، والدخول منها، لكن (بوتيه) قبل أن يبدأ بإطلاق النار، أرسل رسالة مع ضابط تركي إلى حاكم يافا، يدعوه إلى الاستسلام[٦٦]، وأوضحت الرسالة أن الماء قُطعت عن المدينة من جميع الجهات، ونُصبت آلات الحرب المختلفة، لكن حاكم يافا لم يستجب، وحبس الرسول، وأمر بقتله، وأن يُرمى جسده في البحر، وقام بقذف رأسه إلى الفرنسيين، فغضب نابليون، وشدد الحصار، وتصدت الحامية

للقوات المعتدية، وأوقعت فيها خسائر فادحة، ومع ذلك تمكنت فرقة (بون) من فتح ثغرة في سور المدينة [٦٧] ، وعندها بدأ رماة القنابل الهجوم، خوفاً من أن يفوتهم الانتصار، وتفلت الغنيمة من أيديهم، وبدأت فرقة (لان) هجومها، « وسالت الدماء في الشوارع، وفي البيوت، وامتلأ الميناء بزوارق الهاربين، والجرحى، والجثث التي تسقط على الصخور [٦٨]، ذكر الجبرتي: «وأمر [نابليون] بابتداء ضرب المدافع والقنبر الموجب للتدمير، وبعد مضي زمان يسير، تعطلت مدافع يافا المقابلة لمدافع المتاريس، وانقلب عسكر الجزار في وبال وتنكيس، وفي وقت الظهر من هذا اليوم، انخرق سور يافا، وارتج له القوم، ونقب من الجهة التي ضرب فيها المدافع من شدة النار، ولا رادَّ لقضاء **الله** ولا مُدافع. وفي الحال أمر حضرة ساري عسكر بالهجوم عليهم، وفي أقل من ساعة ملكت الفرنساوية جميع البندر والأبراج، ودار السيف في المحاربين، واشتد بحر الحرب وهاج، وحصل النهب فيها تلك الليلة» [٦٩] . وذلك بعد أن أعطى نابليون أمرا بتقدم رماة القنابل أو أن تنصب السلالم لصعود الأبراج، بينما كان بعض أفراد الجيش يدخلون البلدة والقلعة من الثغرة الضيقة. وقد غنم الفرنسيون من القلعة ثمانين مدفعا و٤٠٠,٠٠٠ جراية من البقسماط (الخبز المجفف) و٢٠٠٠ قنطار من الأرز وقد نهب الجند أكثر من ذلك بكثير، مما عثروا عليه في البيوت والحوانيت [٧٠] .

وقد أورد نيقولا الترك وصفاً لمجزرة يافا قائلاً: «كانت المذبحة في ليلة عيد رمضان، فيالها من ساعة كانت من ساعات القيامة، وتباً لها من ليلة لم يكن بها سلامة... وتنتهك الأحرار... ويُقتل الرجال والنساء والأطفال، وفاق صوت البكاء والعويل على صوت البارود، وكنت تنظر واحداً يُقتل، وواحداً جديلاً، وآخر دمه يسيل، والآخر بالأسر ذليل،.... ولم يزل الجيش الفرنساوي في قتل وفتك وسبي وهتك، ،و أخذ أرواح من أول الليل إلى آخر الصباح، وكان يوماً أليماً، وحرباً عظيماً، وسلبوا كل ما في المدينة من المال والأمتعة الغوالِ.... وكان نهار العيد، والخلق في حزن شديد، ومات من العساكر ما ينيف على الخمسة آلاف، ومن أهالي البلد ألفين، وأصبحت مدينة يافا لا يوجد بها أحدّ معافى، ولا بها مستتر، وهي عبرةٌ لمن يعتبر [٧١] .

ووصف الجنرال (ميو) أحد الضباط الفرنسيين في الحملة المجزرة قائلاً: «كنت تسمع في كل مكان صراخ أبنة تُغتصب، وتستغيث عبثاً بأمها التي تُهان، أو بأبيها الذي يُذبح»[٧٢] ، ووصف (ريبو) ما حدث في يافا بأنه « مسّ من الجنون»، وقال الضابط الفرنسي (هويه) : «لم يشعر الفرنسيون بالخجل من تسجيل أعداد قتلاهم من الأسى في يافا، على مدى أربعة أيام، فبلغ مجموع القتلى ٤٤٤١ قتيلاً [٧٣] ، أما ريبو فقد قدم صورة مأساوية لما حدث في يافا، فقد قُسم الأسرى إلى مجموعات، وأُعدمت كل مجموعة على

حدة، ولما خشي بونابرت من نفاذ الذخيرة، أمر بقتلهم بالسلاح الأبيض والهراوات، وقد تُرك الأسرى قبل إعدامهم أمام خيام دون غذاء لمدة ثلاثة أيام، عانوا خلالها من الجوع والعطش، ووصف ريبو حالة الأسرى عندما شعروا بمصيرهم، « أخذوا في ترتيل القرآن، وترديد الشهادة، ونظر بعضهم إلى بعض نظرة وداع، أما الجنود المغاربة فقد فروا إلى ساحل البحر، ولكن الجنود الفرنسيين خدعوهم، وأعلنوا لهم أن بونابرت عفا عنهم، وفور اقترابهم أطلقوا عليهم النيران، أما أطباء الحملة فلم يهتموا بمذبحة يافا، وبالأرواح التي أُعدمت، وانصبّ اهتمامهم على اتخاذ الاحتياطات والإجراءات خوفاً من انتشار الطاعون بين الجنود»، وسجّل القائد بيروس أحداث المذبحة قائلاً: «لقد قتلنا أكثر من ثلاثة آلاف رجل استسلموا لنا بسلامة نية» (٧٤) .

ووصف إدوارد لوكروا المجزرة بقوله: «كلما نهب الجنود شيئاً كانوا يخرجون به بضجة من الأبواب المفتوحة على مصراعيها، ليضعوه في مكان أمين، وقد ساقوا خيولاً وبغالاً، ونقلوا على أكتافهم صناديق مملوءة، ونثروا على أرصفة الشوارع الأثاث والأقمشة، وكانت النساء يركضن كالمجنونات، صارخات ومتخطيات القتلى، وكان علم الفرقة التي هجمت على الثغرة أولاً، وامتلكتها يخفق في أعلاها، وبونابرت قاعد على مدفع في مرج قرب السور مع الجنرال لان.... وصوت الرؤساء في فوضى الانتصار والمذبحة والنهب لا يُنصت إليه، والقيادة أصبحت غير موجودة... وأمر بونابرت برمي الأسرى بالرصاص... فقسم الضباط أولئك الأسرى إلى فئات صغيرة، يحرسها الجنود، ويحيطون بها، ووجهوها، إما نحو شاطئ البحر، وإما إلى سهول واسعة....، وبدأ إطلاق النار على الشاطئ، فدام ساعة كاملة... وقتلوا المشايخ وكبار السن بالسلاح الأبيض (٧٥) .

وصف شاهد عيان أخر مذبحة يافا بقوله: «وفي صباح اليوم التالي، أخذ جميع الأسرى إلى شاطئ البحر وبدأت كتيبتان في رميهم بالرصاص وكان أملهم الوحيد في النجاة هو أن يلقوا بأنفسهم في البحر، ولم يترددوا وحاولوا كلهم الهروب سباحة. فضربوا بالرصاص على مهل، ولم تمض لحظة حتى اصطبغ ماء البحر بدمائهم، وانتشرت جثثهم على سطحه. وأسعد الحظ نفراً قليلاً فوصلوا إلى بعض الصخور. ولكن الأوامر صدرت للجنود باقتفاء أثرهم في قوارب للإجهاز عليهم. أما وقد تم إعدام هؤلاء الرجال فقد رجونا صادقين ألا تتكرر هذه الجريمة. وان يعفى الأسرى الباقون من القتل.... لكن سرعان ما خاب رجاؤنا حين اقتيد ١٢٠٠ جندي تركي ليعدموا، وكانوا قد جوعوا يومين أمام خيمة نابليون وصدرت التعليمات المشددة للجنود بان لا يسرفوا في الذخيرة. فبلغت بهم الوحشية أن أعملوا فيهم الطعن بالسلاح الأبيض. وقد وجدنا بين الضحايا أطفالا كثيرين تشبثوا وهم يموتون بآبائهم» (٧٦) .

وبعد احتلال نابليون يافا أرسل رسالة إلى مصر، وصف فيها المجزرة، وكيفية استيلاء قواته على المدينة، وما تعرضت له من سلب، ونهب، ولقد أشارت بعض الوثائق الشرعية في يافا، بعد اندحار الحملة الفرنسية إلى فظائع ارتكبها الجنود الفرنسيون، ومن ذلك: «.... لما هاجمت الطايفة الباغية الفرنساوية لعنهم الله الأسكلة نهبت بيتي» وجاء في دعوى أخرى: « وأنه في هجوم الإفرنج على أسكلة يافا، استشهد ابن عمنا الحاج حسين عمار المغربي... ولكون الإفرنج في دخولها استولت على أموال الأسكلة.... (٧٧) .

أدى تراكم الجثث في المدينة وضواحيها، إلى تسمم الهواء، فبدأ يتفشى الطاعون في ٨ آذار (مارس) ، ثاني أيام المذبحة، وتغطت أجساد المرضى بدمامل كبيرة، وحوّل الخان إلى مستشفى، وسُيّرت مركبات في المدينة، لنقل المصابين، وأعيى الوباء الأطباء، ولم يقدر شيء أن يوقف انتشاره، وأضيفت الجثث التي قتلها المرض إلى قتلى الحرب، وفي ١١ آذار (مارس) زار نابليون وأركان حربه المستشفى، وتجول فيها، وتكلم مع بعض الجنود الذين أصيبوا بالطاعون، واقترح على الأطباء أن يجرعوا المصابين السم، لكن الأطباء رفضوا ذلك، فسخروا الأسرى لحمل المرضى لمصر على ألواح خشبية، كما أصدر نابليون أمراً بتجنيد المسيحيين الأرثوذكس إجبارياً، لخدمة الجرحى في المستشفى، والمسيحيين اللاتين والأرمن لرعاية حالات الطاعون (٧٨) .

أخذ الطاعون ينتشر بين جنود فرقة رينيه المرابطين في الرملة، ومع ذلك حرك نابليون قواته إلى عكا، بعد أن وصلته مدافع كبيرة وآلات حصار من الإسكندرية ليستخدمها في حصار عكا (٧٩) ، وفي طريقه استولى على حيفا، التي انسحبت منها حاميتها، ووضع حامية فيها في ١٦ آذار (مارس) ١٧٩٩م، وشوهدت بالقرب من مينائها سفن الأسطول الإنجليزي بقيادة سدني سميث (Sydney smith) (٨٠) ، وكتب نابليون بعد احتلاله يافا إلى أهالي نابلس يخيرهم بين الحرب والاستسلام، كما كتب إلى الجزار نفسه يدعوه إلى ترك القتال، والعيش بسلام مع الفرنسيين، ولبى الدروز دعوته وحضر وفد منهم لتحية نابليون (٨١) ، لكن غالبية القيادات المحلية الفلسطينية نظرت للحملة الفرنسية على أنها امتداد للحرب الصليبية، خاصة بعد المجزرة المروعة التي ارتكبتها في يافا، إضافة إلى تحريض الجزار ومعاونيه لأهالي المدن ضد الفرنسيين، ولم تنطلِ على أولئك القادة المراسلات المعسولة التي أرسلها نابليون، ولقد أرسل كليبر لإخضاع نابلس والجبل، لكن الحملة لم تجد نجاحاً، فقد تعرضت للرصاص، وشعر دوماس أن مدافعه وخيالته أصبحت عبئاً ثقيلاً عليه.... وكان العربان يحتلون أماكن منيعة، ويقتلون الفرنسيين وخيولهم (٨٢).

خاتمة:

اتضح مما سبق أن مدينة يافا عريقة، ضاربة في أطناب التاريخ، وقد اهتمت الجيوش الغازية باحتلالها عبر العصور؛ مما أدى إلى تعرضها للخراب والدمار مرات عديدة، وفي حقب تاريخية متعاقبة.

أما ما حدث لأهالي يافا في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، فكان أكبر من احتمال المدينة، فقد تعرضت لمجازر ثلاث، خلال أقل من ثلاثين سنة.

المجزرة الأولى كانت في عام ١٧٧٢م، وارتكبها كل من ظاهر العمر الزيداني وحليفه علي بيك الكبير، وإن لم تذكر المصادر التاريخية أعداد الضحايا في تلك المجزرة، إلا أنها أوحت بفداحة الخسائر.

وكانت المجزرة الثانية في عام ١٧٧٥م؛ أي بعد ثلاثة أعوام فقط من المجزرة الأولى، وقبل أن تستعيد يافا عافيتها، أو أن تندمل أحزانها على ما حدث فيها من فاجعة أولى، وارتكب المجزرة الثانية محمد بك أبو الذهب، وقدرت بعض المصادر التاريخية ضحايا تلك المجزرة بخمسة آلاف نفس، دون تفريق بين مسلم و نصراني من أهلها.

أما المجزرة الثالثة فكانت في عام ١٧٩٩م، ونفذتها قوات الحملة الفرنسية، التي وصلت من مصر؛ لاحتلال بلاد الشام، واختلفت الروايات حول أعداد الضحايا في تلك المجزرة المروعة، لكن عدداً من المصادر الفرنسية ذكر أن عدد الشهداء بلغ (٤٤٤١) شهيداً، دون مراعاة لصغير أو شيخ كبير، أو طفلة، أو امرأة.

وبذلك يمكن القول إنه ما بين عامي ١٧٧٢ – ١٧٩٩م؛ أي خلال (٢٧) سنة، فقدت مدينة يافا ما يزيد عن عشرة آلاف شخص على أقل تقدير، سواء من أهلها الأصليين، أم حاميتها العسكرية العثمانية.

ويمكن القول أيضاً: إن تلك المجازر الدامية، وما صاحبها من دمار في يافا وموانئها، انعكس على الناحيتين العمرانية والاقتصادية في المدينة، إضافة إلى النتائج الاجتماعية الخطيرة التي مُني بها أهالي يافا.

الهوامش:

١. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، ص٩٧.
٢. غربية، عز الدين: يافا، ص ٧٨٤.
٣. الأغا، نبيل: مدائن فلسطين، ص ١٥٢.
٤. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج٤، ص ٦٠٨.
٥. غربية، عز الدين: يافا، ص ٧٨٥– ٧٨٦؛ الأغا، نبيل: مدائن فلسطين، ص١٥٢.
٦. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، ص١١٠– ١١٢.
٧. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١١٤– ١١٥؛ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج٤، ص٦١١.
٨. غربية، عز الدين: يافا، ص ٧٨٦؛ الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، ص ١١٦– ١١٨.
٩. الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ج٤، ص٦١١.
١٠. غربية، عز الدين: يافا، ص ٧٨٦.
١١. سيسالم، عصام، وزكريا السنوار: لواء غزة في العصر العثماني، ص ٦٦– ١٨٢؛ الصباغ، ليلى: الجاليات الأوربية، ج٢، ص٣٣٥– ٣٤٠.
١٢. الصباغ، ليلى: الجاليات الأوربية، ج٢، ص٣٤١، مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص١٦.
١٣. Cohen, Amnon: Palestine in the 18 th century, p.144.
١٤. Ibid., p. 145.
١٥. Ibid., p. 152- 153.
١٦. الدمياطي، مصطفى: موانح الأنس، ص ٤٦.
١٧. مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ٥٤– ٥٥.
١٨. رافق، عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين (١) ، ص ٧١١.
١٩. معمر، توفيق: ظاهر العمر، ص ١٤٦.
٢٠. معمر، توفيق: ظاهر العمر، ص ١٤٦– ١٤٧.
٢١. رافق، عبد الكريم: العرب والعثمانيون، ص ١٩٤؛ مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص ٦١.
٢٢. الشهابي، حيدر: تاريخ الأمير حيدر ج٢، ص٨٠٠؛ بازيلي، قسطنطين: تاريخ سوريا، ص٥١.
٢٣. فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية، ص ٣٣٦.

٢٤. نوفل، نوفل: كشف اللثام، ص ١٦٧؛ مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص ٦٤.

٢٥. بازيلي، قسطنطين: تاريخ سوريا، ص٥٧؛ الشهابي، حيدر: تاريخ الأمير حيدر، ج٢، ص٨٠٩؛ حتى، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج٢، ص٣٣٧.

٢٦. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٢، ص١٣٦– ١٣٨.

٢٧. النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ص ١٤٠– ١٤٤.

٢٨. العباسي، مصطفى: تاريخ آل طوقان، ص ٨٠؛ النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ص١٤٥.

٢٩. النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ص١٤٥– ١٤٦.

٣٠. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٣٨.

٣١. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص ٦٠.

٣٢. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٣٨– ١٣٩.

٣٣. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص ٦١– ٦٣.

٣٤. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٣٩.

٣٥. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٣٩– ١٤٠.

٣٦. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص ٦٣؛ الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٤٠؛ Cohen, Amnon: Palestine, p.155

٣٧. الطباع، عثمان: إتحاف الأعزة، ج١، ص٢٨٣؛ توما، أميل: فلسطين في العهد العثماني، ص٤٨،٤٨.

٣٨. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٤٧٣– ٤٧٤.

٣٩. مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص٧٠.

٤٠. الجبرتي: عجائب الآثار، ج١، ص٤٧٤.

٤١. بريك، ميخائيل: تاريخ الشام، ص١١٢– ١١٣؛ مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص ٧٠– ٧١.

٤٢. المرادي، محمد: سلك الدرر، ج١، ص٥٤– ٥٧.

٤٣. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص٩٧– ٩٨.

٤٤. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص ٩٨– ٩٩.

٤٥. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج ٤، ص ١٤٣.

٤٦. بريك، ميخائيل: تاريخ الشام، ص١٠٢.

٤٧. الدباغ: مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٤٤.

٤٨. منصور، أسعد: تاريخ الناصرة، ص ٥٥، توما، إميل: فلسطين في العهد العثماني، ص٤٨ – ٥٠؛

Safi, Khaled: Egyptian rule in Palestine 1831- 1840, A critical Reassessment, Mensch & Buchverlag, Barlin, p.19

٤٩. نوفل، نوفل: كشف اللثام، ص١٩٢؛

Safi, Khaled: The Egyptian rule in Palestine 1831- 1840, p.19- 20

٥٠. العبد، حسن أغا: حوادث بلاد الشام، ص ٥؛

Khoury,George: the province, p.69- 70

٥١. مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص ١٠١؛ العبد، حسن أغا: حوادث بلاد الشام، ص٦٩

٥٢. جرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص٣١– ٣٣؛ سلطان، علي: تاريخ العرب الحديث، ص١٤٥ – ١٤٦؛ Cox, Gary: the Halt in thmus, p.13.؛

انظر: الحويك، إلياس: تاريخ نابليون الأول، ج ١، ص ١٠٣ – ١٢٢؛

Fisher, Herbert: Napoleon, p. 59- 64

٥٣. Khoury, George: the province,p.49, Safi, Khaled: The Egyptian rule in Palestine 1831- 1840, p.20

٥٤. رافق، عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين (١) ، ص٧١٩– ٧٢٠؛

Fisher, Herbert: Napoleon, p. 66

٥٥. الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٥٠.

٥٦. رافق، عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين (١) ، ص٧٢٠– ٧٢١؛ الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٥٣؛ Fisher, Herbert: Napoleon, p. 67.

٥٧. الدارندلي، عزت: الحملة الفرنسية، ص٢٠٠؛ لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص١٨٨– ١٨٩؛ جرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص٩٣– ٩٤؛ الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٥٥– ٢٦٦؛

Chrisawn, Margaret: Marshal Jean Lannes, p.52- 53; Fisher, Herbert: Napoleon, p. 67

٥٨. الدارندلي، عزت: الحملة الفرنسية، ص٢٠١؛ مناع، عادل: تاريخ فلسطين، ص٩٥؛ الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٥٥– ٢٥٩؛ ٢٦٤– ٢٦٦؛

Chrisawn, Margaret: Marshal Jean Lannes, p.54

٥٩. جرار، حسني: جبل النار، ص١٨٨– ١٩٣؛ النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس، ج١، ص٢٠٩– ٢١٠؛ chrisawn, Margaret: Marshal Jean Lannes, p.52- 53

٦٠. الجبرتي: عجائب الآثار، ج٣، ص٥٢– ٥٣.

٦١. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٥١.

٦٢. الدار ندلي، عزت: الحملة الفرنسية، ص٢٠١.

٦٣. جرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص٩٧.

٦٤. الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٦٧.

٦٥. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص١٩٠– ١٩١.

٦٦. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٥١.

٦٧. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص١٩١؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج٢، ص٢٦٠– ٢٦١؛ جرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص٩٧.

٦٨. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج١، ق٢، ص١٥٠– ١٥١.

٦٩. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص١٩٤– ١٩٥.

٧٠. الجبرتي: مظهر التقديس، ج ١، ص ٢٦٩.

٧١. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٥٢.

٧٢. الترك، نيقولا: الحملة الفرنسية، ص٦٩– ٧٠.

٧٣. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج١، ق٢، ص١٥٢.

٧٤. سجل المجيور (ديتروا) بياناً بعدد من أعدموا في ٧ آذار (مارس) مات أثناء الهجوم أكثر من ٢٠٠٠، وفي ٨ آذار مات رمياً بالرصاص ٨٠٠، وفي ٩ آذار مات رميا بالرصاص ٦٠٠، وفي ١٠ آذار مات رميا بالرصاص ١٠٤١، فكان المجموع ٤٤٤١ (الجرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص١٠٣).

٧٥. هوية: الحملة الفرنسية، ص٣٩– ٤٠.

٧٦. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص١٩٦– ١٩٧.

٧٧. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ص١٥١.

٧٨. البواب، علي: موسوعة يافا الجميلة، ج١، ص٤٧.

٧٩. جرار، حسني: أسرار حملة نابليون، ص١٠٣– ١٠٤؛ الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، ج٤، ق٢، ص١٥٩– ١٦٠.

٨٠. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص٢٠٢.

٨١. رافق عبد الكريم: فلسطين في عهد العثمانيين (١) ، ص٧٢٣؛

٨٢. Khoury,George: the province, p.87 82-

٨٣. لوكروا، إدوارد: الجزار قاهر نابليون، ص٢٠٠– ٢٠١.

المصادر والمراجع:

أولاً- المراجع العربية:

١. الإسكندري، عمر، وسليم حسن: تاريخ أوروبا الحديث، مطبعة العارف، مصر، ١٩٢٠م.

٢. الأغا، نبيل: مدائن فلسطين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

٣. أوزوتونا، يلماز: تاريخ الدولة العثمانية، مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، ١٩٩٩م.

٤. بازيلي، قسطنطين: سوريا وفلسطين ولبنان تحت الحكم العثماني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩م.

٥. بريك، ميخائيل: تاريخ الشام ١٧٢٠– ١٧٨٢م، تحقيق أحمد سباتو، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٢م.

٦. البواب، علي: موسوعة يافا الجميلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.

٧. الترك، نيقولا: الحملة الفرنسية على مصر والشام، تعليق ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٠م.

٨. توما، إميل: فلسطين في العهد العثماني، دار الفجر للطباعة والنشر، القدس، ط١، ١٩٨٢م.

٩. الجبرتي، عبد الرحمن: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.

١٠. الجبرتي، عبد الرحمن: مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس، تحقيق: عبد الرازق عيسى وعماد هلال، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٩٨م.

١١. جرار، حسني: جبل النار تاريخ وجهاد، دار الضياء للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٩٩٠م.

١٢. _____، ____: أسرار حملة نابليون على مصر والشام، دار الضياء، عمان، ط١، ١٩٩٠م.

١٣. حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي وآخرون، دار الثقافة، بيروت، د.ت.

١٤. الحويك، إلياس طنوس: تاريخ نابليون الأول، دار ومكتبة الهلال، القاهرة، ١٩٨١م.

١٥. الدارندلي، عزت: الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني، ترجمة جمال عبد الغني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١٦. الدباغ، مصطفى: بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، د.ط، ١٩٩١م.

١٧. الدمياطي، مصطفى اللقيمي: موانح الأنس برحلتي إلى وادي القدس في عام ١١٤٥هـ، مخطوط.

١٨. رافق،عبد الكريم: العرب والعثمانيون، مكتبة أطلس، دمشق، ١٩٧٤م.

١٩. ____،_____: فلسطين في عهد العثمانيين؛ الموسوعة الفلسطينية، ق٢، ج٢، ط١، ١٩٩٠م.

٢٠. سلطان، علي: تاريخ العرب الحديث، مكتبة طرابلس العلمية، طرابلس الغرب، د.ت.

٢١. سيسالم، عصام، وزكريا السنوار: لواء غزة في العصر العثماني الأول، مطابع مركز رشاد الشوا الثقافي، غزة، ط١، ٢٠٠٤م.

٢٢. الشهابي، حيدر: تاريخ الأمير حيدر الشهابي، دار الآثار، بيروت، ط١٩٨٠م.

٢٣. الصباغ، ليلى: الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

٢٤. الطباع، عثمان: إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، تحقيق عبد اللطيف أبو هاشم، مكتبة اليازجي، غزة، ط١، ١٩٩٩م.

٢٥. العباسي، مصطفى: تاريخ آل طوقان في جبل نابلس، مطبعة دار المشرق للترجمة، شفا عمرو، ١٩٩٠م.

٢٦. العبد، حسن أغا: حوادث بلاد الشام والإمبراطورية العثمانية، مطبعة الشام، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.

٢٧. غربية، عز الدين: يافا؛ موسوعة المدن الفلسطينية، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ١٩٩٠م.

٢٨. فريد، محمد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١م.

٢٩. لوكروا، ادوارد: الجزار قاهر نابليون، دار الثقافة، د.ط، د.ن.

٣٠. المرادى، محمد: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٩٨٨م.

٣١. معمر، توفيق: ظاهر العمر، مطبعة أوفست الحكيم، الناصرة، ط١، ١٩٧٩م.

٣٢. مناع، عادل: تاريخ فلسطين في أواخر العهد العثماني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٩٩م.

٣٣. منصور، أسعد: تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلى أيامنا الحاضرة، مطبعة أوفست الحكيم، الناصرة، ١٩٨٣م.

٣٤. نوفل، نوفل: كشف اللثام عن محيا الحكومة والأحكام في إقليمي مصر وبر الشام، حققه ميشال أبو فاضل وجان نحول، جروس بروس، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

٣٥. النمر، إحسان: تاريخ جبل نابلس والبلقاء، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، ط٢، ١٩٧٥م.

٣٦. هوية: الحملة الفرنسية على مصر: مذكرات ضابط من جيش الحملة، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

٣٧. هيئة الموسوعة الفلسطينية: الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ٤ مجلدات، بيروت، ١٩٨٤م.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. *Chrisawn, Margaret: Marshal Jean Lannes; The Emperor's Friend. Greenwood press, London, 2001*
2. *Cohen, Amnon: Palestine In the 18th century, The Magnes press, The Hebrew The Hebrew University, Jerusalem, 1973.*
3. *Cox, Gary: The Halt in thmus, French strategic planning from Water Loo to Sedan. Westview press, Oxford, 1994.*
4. *Fisher, Herbert: Napoleon, Henry Holt and Company, New York, and Williams and Norgate, London, 1913.*
5. *Khoury, George: The province of Damascus 1783 – 1832, 2001.*
6. *Safi, Khaled: The Egyptian rule in Palestine 1831- 1840, A critical Reassessment, Mensch & Buchverlag, Barlin, 2004.*